«الدرس التاسع»

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وأصحابه أجمعين

أما بعد

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:116]

إنَّ الحمد لله نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لِه، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وأَشْهَدُ أن لا إله إلا اللهُ وحَدهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

أما بعد

بعد أن تبين لنا المعنى الإجمالي للآية نبدأ بذكر الأحكام الفقهية بإذن الله المستنبطة من قوله ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ الآيات تحذر المسلمين من أن يتقولوا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما لم يقله، وهي نص صريح في ذلك وهذا هو دلالة المطلوب من الآية.

فسيقت الآية لبيان ألا نفتري على الله الكذب، فالدين دين وحي، وليس دين فكر ولا دين عقل. قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:44] فالدين ذكر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ودين الناس اليوم قليل من كان

دينه دين وحي، وأغلب الناس دينه دين العادة، والذي يتميز عنهم قليلا يأخذ دينه من الفكر لا من الوحي، ولذا قَلَّ العلماء في الأمة.

الأصل قال الله، قال رسوله قال الصحابة، وما لم يعرفه أهل بدر ليس من دين الله-كما قال سعيد بن المسيب- وكان أيوب السختياني يقول إذا استطعت ألا تحك رأسك إلا بالأثر فافعل.

الدين قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه

ما الدين، أو قال ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول ورأي فقيه

كان يقول بعض السلف ليتقي أحدكم أن يقول أحل الله كذا، وحرم الله كذا فيقول الله له كذبت لم أحل كذا ولم أحرم كذا، وكان أبو نضرة يقول قرأت هذه الآية في سورة النحل ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ فلم أزل أخاف من الفتيا إلى يومي هذا.

آية شديدة على المفتين. المفتي يخاف من هذه الآية خوفا شديدا، ولذا كان الفقهاء يكثرون من قولهم لا أدري، وكان بعض التابعين يقول من ترك لا أدري فقد أصيبت مقاتله، وكان بعض أصحاب مالك يقولون لو أردنا أن نكتب في الألواح من قول مالك ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:32] لفعلنا، وكان يقول يا ليتني أُجلد سوطا على كل فتيا أفتيتها، وأخلص بألا تكون علي مؤاخذة بين يدي الله، وسئل مرة نيفا وأربعين مسألة، فقال لا أدري؟ فأجاب عن اثنتين فقال السائل يا إمام أتيتك من مكان بعيد، وهذه الأسئلة للناس، الناس سألوني فدونتها وجئت أستفتيك عنها، ماذا أقول لهم؟ فقال مالك ارجع إليهم وأَذِّن في الناس مالك لا يدري.

كثير من الفتاوى تُعرض لو عرضت على الصحابة لجمع لهم عمر أهل بدر، وكثير الناس يفتي على ما يشتهي.

ففي الآية تضرع واستخدام طالب العلم، والمفتي ألا يقول هذا حلال وهذا حرام، وإن اضطر أن يتكلم ما يقول هذا حكم الله، يقول هذا رأيي كان يقول ابن مسعود لما كانوا يسألون، ولا يجدون قال الله في المسألة، ولا قال رسول الله فيجتهدون من عندهم يقولون هذا رأيي، فإن أصبت فالحمد لله وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله.

فإذا المفتي سئل عن مسألة لا يقول هذا حلال وهذا حرام، إذا اضطر المفتي أن يقايس وأن يستخدم الأدلة وأن يعمل الذهن، ولا يجد نصا صريحا من قال الله، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسألة فيها خلاف يقول هذا رأي، يذكر أقوال الفقهاء ويقول الراجح كذا.

أما المسألة المتفق عليها، والتي فيها أدلة فهذه لا يفتى فيها، تلك تشفع بقولك الله أعلم.

اختلف الفقهاء على قولين على ثلاثة ثم تذكر الأقوال ثم تذكر الراجح الذي فتح الله صدرك له، وتقول الله أعلم.

أما إن سئل الرجل عن مسألة فيها إجماع، وفيها نص صريح لا تقول الله أعلم، قل الله الموفق.

قل حكم الله في المسألة كذا وكذا؛ لقول النبي كذا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لقول الله تَعَالَى كذا.

أجمع عليها أهل العلم، الله الموفق.

فمفتي يحسن متى يستخدم الله أعلم، ومتى يستخدم الله الموفق.

هذه لها صورة وهذه لها صورة، ويدخل في الآية ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾، كل من ابتدع بدعة من رأسه، واختار طاعة فحددها كما يحددها الشرع بعدد أو بمداومة تصبح شريعة، وهذا يقع فيه كثيرا إخواننا الرُقَاة.

يقول لك اقرأ آية كذا.. كذا مرة، ويعطيك الأوقات أحيانا هذا دين. التجربة هل هي دين؟ لا. هل التجربة لها قيمة؟ نعم. الرُقَاة، إخواننا الرقاة الذين يرقون لو ثبت لهم بالتجربة أن بعض الآيات نافعة في بعض الحالات لا حرج، **«من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل»** هذا كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكن لا يجوز لك أن تجعل النص والتجربة سيان!

التجربة استقراؤها ناقص، والنص استقراؤه تام النص يصلح في كل حالة، ويشمل كل شخص أما التجربة قد يتخلف بعض الناس. كذلك الآية تشمل كل من ابتدع بدعة، فزعم صلاة معينة ولم تأت النصوص بها فهذا قال حلال وهذا قال حرام، ولذا كان الشافعي رَحِمَهُ اللَّه يقول **«من ابتدع بدعة فقد شرع»** شرع للأمة عبادة ما أنزل الله بها من سلطان، ولهذا كانت البدعة في دين الله عَزَّوَجَلَّ أشد من المعصية؛ لأن المعصية يُتاب منها وصاحبها يُمَنِّي نفسه بأن يتوب، أما البدعة فأنى له التوبة، وإن تاب وقد انتشرت بين الناس عبادة على أن الله يحبها، والناس الذين ابتدعوا قديما كما يقول أبو شامة المقدسي لما ذكر صلاة الألفية التي تصلى فيها عشر ركعات، وتقرأ في كل ركعة عشر مرات سورة الإخلاص.

قال في رحلته إلى بيت المقدس التقيت بنابلسي واحد من نابلس، في فلسطين معروفة، ولعل بعضنا من نابلس قال فقال لي أنا الذي كذبت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الألفية تؤدى في رجب، للآن

هناك أناس تؤدي صلاة الألفية في رجب، والوزر عليه. هذا أنَّى له أن يتوب؟

هذا كالمسألة التي بحثها الشاطبي في الموافقات، قال رجل أطلق القوس فبعد إطلاقه القوس، وفي طريقه للقتل قال تبت؟! ما التوبة الآن بعد رمي القوس، وقبل وصوله للصدر!! ما معنى التوبة هذه؟ فكل من ابتدع بدعة في دين الله عَزَّوَجَلَّ فالآية تشمله، والآية دلت على شيء مهم أن تحليل الحرام ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ كلاهما سيان، بل قد يكون تحريم الحلال أشد من تحليل الحرام؛ لأن الأصل في الأشياء الحِلّ، فرجل عسر يفتي الناس بالحرمة إذا أنت ورع، أبق ورعك لك، ما يجوز لك أن تمنع الناس مما أحل الله تحت ذريعة الورع، وثبت في صحيح البخاري حديث عن سعد بن أبي وقاص هو مهم وخطير، وخطير الغاية كان سعد يقول قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**أشد الناس جُرْمًا من سأل عن مسألة فَحُرِّمت من أجل مسألته**» من هو أشد الناس جرما؟ طالب علم سائل سأل عن المسألة فحرمت المسألة من أجل سؤاله. اتركوا الناس، لا تتشددون في كثرة السؤال، لا تتكلفون، نُهينا على في التكلف، في كل شيء يُمنع التكلف، والحديث علقه البخاري، وثبت عن سلمان الفارسي، وسلمان كان من الشام وأهل الشام متأنقين في الطعام فجائه أضياف فقال ضيف لسلمان، وسلمان كان زاهدا فقدم له ماء وخبز. هذا أكله كسرة خبز مع ماء، فقال الضيف الشامي قال أريد زعتر. الزعتر من قديم معروف عند أهل الشام قال له أريد زعتر فخرج سلمان، وأخذ مكحلة له ورهنها عند صاحب الدكان أعطاه زعتر فقدم له زعتر فحمد الله عَزَّوَجَلَّ فقال سلمان نُهينا عن التكلف، تكلفت لكم بالزعتر لا أستطيع آتي لكم بزعتر.

فتحريم الحلال، وتحليل الحرام كلاهما سيان، وكلاهما معصية شديدة فبعض الناس طبعه شديد يفتي بالحرمة في كل شيء، لا يجوز لك ذلك.

إذا أردت أن تتورع أسكت، أُسأل كثيرا عن اللحوم مثلا أقول أنا لا أحرمها لكن لا آكلها. اللحوم المستوردة بأشكالها وأنواعها وألوانها لا آكلها، لكن لا أستطيع أن أقول حرام؛ لأني أجهل كيفية ذبحها، فقال لي بعض أصحاب المسالخ في عمان قال نأتيك ونعرض عليك فيديو على مسلخ ونريك كيف تذبح بعض الذبائح التي تصل الأردن من الصين.

قلت لا أريد، ما أريد أن تأتوني، أنا أقول هذا حلال بعينه الذي ذُبح أمامي لكن لا أستطيع أن أقول كل اللحم الذي في السوق في الصين حلال، لكني لا أقول حرام أنا لا آكله، ولكني لا أقول حلال وحرام. فهذه الآية مرعبة، هذه الآية مخيفة. إياك أن تقول هذا حلال وهذا حرام من رأسك ومن مألوفك ومن العادات الجارية بين الناس، هذا حلال هذا حرام تحتاج أن تقول قال الله قال رسول الله. أنت لما تسأل المفتي عن مسألة لا تسأله إلا لأنه عالم فمن حقك أن تقول ما دليلك؟ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل: 44:43] تسأل واحد يعطيك جواب تقول له دليلك يغضب؟ أنا ما أسألك لأنك فلان، ولا لأن على رأسك عمامة، ولا لأنك لابس جبة أنا أسألك عن حكم الله في المسألة، أنا أسألك عن مسألة في ديني، فإذا ما أتيتني بالدليل لا أقبل قولك.

المسائل الاجتهادية المستنبطة للعلماء، وتذكر كما قلت الله أعلم ويذكر فيها الخلاف بالأدلة المعهودة.

هل التحليل والتحريم لنا؟ لا، ليس لنا ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى

الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيب * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلى أَجل مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيب * فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير﴾ [الشورى:13-15]

﴿شَرَعَ لَكُم﴾ الله الذي شرع، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبين، والله يوحي لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويبين. التحليل والتحريم لله ورسوله، ويحرم علينا أن نقول هذا حلال وهذا حرام دون بينة دون أدلة سواء نقلية نصية أو مستنبطة وفق قواعد الاستدلال المعروفة في علم الأصول.

أنكر الله على من نسب لدينه هذا حلال وهذا حرام، وكذلك من باب أولى أن ينكر على من نسب لله صفة أو نفى صفة ثابتة لله.

فالله غيب ولا نثبت إلا ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته إليه نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكذلك النبي، وما سكت الله عنه نسكت عنه.

ما أثبته نثبته، وما نفاه فيه، وما سكت الله عنه وما سكت عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحرم علينا شرعا أن تكلم بغير علم، بغير برهان، بغير دليل.

تأمل معي الآية جيدا ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ التحليل والتحريم من غير دليل كلام فارغ لا وزن له، بل ليس له حقيقة؛ لفقدان الدليل.

تأمل معي الآية ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ فعبر الله عن ذلك بوصف اللسان فكأن الكلام كلام لسان لا يدخل القلب، ولا يستقر في القلب. قال ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ هذا كلام لسان، ليس هذه حقائق، فكل كلام فيه هذا حلال وهذا حرام من غير بينة ولا دليل كلام لا حقيقة له، كلام خارج من اللسان. قلنا قبل الصلاة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ حقيقة ثابتة باقية إلى يوم الدين، وكل مُفت مفتئت على الشرع معتد عليه يفتي.. بعض الناس يفتي على حسب ما يطلبه المستمعون. ما يريد الناس يقول حلال. قال الله كذا. قال إيييييه.. هذا حرج، هذه حجة؟

يقول شيء فتقول، قال الله كذا، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال كذا، فيقول هذه شدة على الناس.

هذا أمر شائع، هل شيوع الشيء يدل على حِلِّه؟ وهل هجران الشيء إن أراد الناس عمله الثابت في الكتاب والسنة يصبح منكرا من الدين؟ ليس هكذا تورد الإبل، ولما كان المفتري يفتري لتحصيل مطلوب نفى الله تعالى عنه الفلاح؛ لأن الفوز والخير بخلاف صنيعه. فالمفتري الذي يفتري ويعمل جهده بكل ما أوتي من وسيلة مآله إلى عدم الفلاح في الدنيا والآخرة.

تفقد تجد، انظر حواليك، وإلى أحوال العلماء، واسمع العلماء الذين يُترحم عليهم ويُترضى عليهم وعلى رأسهم الفقهاء الأربعة الإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فلاحهم أن ذكرهم باق إلى يوم الدين.

كثير من العلماء عندهم سعة في العلم لكن بسبب افتراءهم على الله الكذب ما أفلحوا، ولا وجود لهم واندثروا بل من عرفهم شتمهم، بل بعض الناس لما تنقل عنه بعض الأقوال تضطر أن تقول لا رحم الله فيه مغرز إبرة، من شدة إيذائه وافتئاته وتعديه على شرع الله، والحكم الأخير مأخوذ من قوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ وهذا في المطعومات والمشروبات.

الأصل في المطعومات والمشروبات، إما حلال أو حرام الطعام والشراب، ما في شي مكروه قد يقول أخ الثوم! نقول لا الثوم حلال، والكراهية في رائحته كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، ولذا قول الناس أن الدخان مكروه قول خطأ ليس بصحيح، إلا إذا اعتبرنا الكراهة على حد إصلاحي.

في مذهب الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ كل ما نُهِي عنه بنص ليس بمتواتر فهو مكروه كراهة تحريمية. قالوا ما المكروه كراهة تحريمية؟ قال حكمه حكم الحرام إلا أن الحرام من استحله كفر؛ لأن الحرام عندهم يدور مع المتواتر مع اليقين.

قال وأما المضمون الثابت في حديث، وليس بمتواتر قالوا من فعله آثم، ولكن من استحله ليس بكافر. مثل الدخان.

هل الحنفية يُؤَثِّمون من يتعاطى الدخان؟ نعم. لكن هل يكفرون من يقول بِحِل الدخان؟ لا؛ لأن حرمة الدخان ثبتت بعمومات، وليست بنصوص متواترة لكن هم يحرمون من يحل الخمر؛ لأن الخمر ثبت تحريمه في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهذا دليل واضح أن الفتوى على التأثيم سواء قلنا حرام على مذهب الجماهير أو قلنا مكروه كراهة تحريمية على

الدخان، وإن شككت في الدخان، وإن أردت تعرف حقيقة الدخان فاسأل من كان مولعا به ثم تاب منه فاسأله هل للدخان حسنات؟

ماذا سيقول؟ نعم حسنته أني ألعنه، وألعن من علمني إياه! إن وجدت له حسنة.

الدخان خبيث تأمل معي كان بعضنا صائما اليوم، ونحن في مسجد نأكل نحن صوام نأكل، ولو كان بعض الصائمين يتوضأ ويقضي حاجته أجلكم الله في المرحاض، وأَذَّن، وبجيبه تمر أو ماء هل يستطيع أن يأكل في المرحاض، أو يشرب في المرحاض؟ هل نأكل في المسجد، ونشرب المسجد؟ الدخان خبيث، ليس بطيب، وكل من جادل في خبث الدخان، هو يكابر فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ يدل على أن المطعومات والمشروبات إما حلال وإما حرام، وما قيل فيه مكروه ليس لأن المطعوم حرام، لأن الرائحة هي التي قالوا بكراهيتها كالبصل والثوم.

لذا أجمعوا لو أن رجلا تعاطى شيئا بعد أكله لما تنبعث منه الرائحة الكريهة فزالت الرائحة فليس عليه كراهة. الإنسان إذا تعاطى ثوم أو بصل ثم بعض المواد، الإمام ابن القيم في الهدي النبوي لما ذكر الثوب سمى بعض المواد من أخذها بعد تعاطي الصوم تزول الرائحة، فلا حرج في هذا أو أخذ الثوم نيئا، وبلعه ما في رائحة. ما أحد يقول بالكراهة.

فالكراهة للرائحة وليس لتعاطي المادة والله تعالى أعلم.

نأتي للآية قبل الأخيرة، وإن شاء الله نختم اليوم نتأخر قليلا بعد العشاء.

يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:125]

قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ الحكمة مجردة من وصف ثم قال، والموعظة وصفها بقوله ﴿الْحَسَنَةِ﴾ ثم قال ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولم يقل وجادلهم بالحسنى وإنما قال ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ إن ربك يا محمد أعلم بالمهتدي، وبالضال. بمن زاغ عن طريق الله ولم يتبع دينه، وربك أعلم بالمهتدين بدينه، الذين اتبعوا الحق، وسيجازيهم على أعمالهم، وهذه الآيات مكررة القرآن ولي على التكرار وقفة لا أستطيع الكلام مفصل عنها إلا أن أنوه -وأنتم طلبة علم- وتتابعون التنويه الذي سأذكره بإذن الله تعالى.

القرآن كل لقطة في محلها، وتفيد في المحل التي هي فيه فوائد جمة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ فعل أمر يدل على وجوب قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ما قال ادع إلى سبيل الله. ما معنى الرب؟ الرب له أربعة معاني في القرآن:

المعنى الأول: المالك، والمعنى الثاني: السيد، والمعنى الثالث: المربي، والمعنى الرابع: المدبر. فكل آية فيها الرب في القرآن تدل على هذه المعاني الأربعة، والمتأمل في هذه المعاني الأربعة يجد اثنتين لعموم الخلق لِتَقِيِّهِم وفاجرهم، مسلمهم وكافرهم، وهو السيد والمالك، ويجد معنيين آخرين: فالله يربي بعض خلقه ويدبر أمرهم على حال دون حال.

فتربية الله وتدبيره لأمر أنبيائه ورسله والصالحين والعلماء غير تدبيره وتربيته لغيرهم، ولذا قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ الخطاب للعالِم

الصالح حريص على دين الله، يا من كنت على سبيل اختارك الله إليه فرباك ودبر أمرك فكنت على هذا الصراط.

فالرب فيه ملك، فيه سيادة، فيه تربية، فيه تدوير فيه شيء زائد عن الله، وذكر الرب وذكر الله جَلَّ في عُلَاه في القرآن فيه كنوز، منجم من الكنوز كل ما تمر آية فيها ذكر الجلالة أو ذكر الرب تأمل شديدا لماذا السر هنا ذكر الله، وهناك ذكر الرب؟ في صورة أخرى الآية شبيهة معها لكن اختلف الذكر.

هذا تدبر القرآن هذا بدايات التدبر.

من أصول التدبر تعرفها.

فكل آية فيها الرب فيها تربية، وفيها تدبير ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ سبيل الطريق المسلوك، يا من علمك الله ادع إلى شيء مسلوك معروف عند المدعوين، لا تُغْرِب، أنت تسأل ربك تقول ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لا تقول اهدنا السبيل، والصراط واحد، والسبيل واحد ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:69] فالسبل كلها في سبيل واحد في الصراط.

نبدأ معرفة الأحكام التي يمكن أن نستفيد منها في حياتنا وفي دعوتنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأسأل الله أن يكرمنا وإياكم بأن نكون دعاة للمنهج الحق، وأن نربط الناس بالله، وأن نعرفهم به.

فالأنبياء بعثهم الله إليه داعين وبه معرفين، ولمن أجابهم مبشرين ولمن خالفهم منذرين ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ حجة في ترك الغلظة عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها استعمال اللطف واللين لأن أجدر

لمن يلين أن تتوجه إلى كلامه القلوب، وأن يتأثروا بكلامه، وأحرى أن تصل الموعظة إليهم.

قسم الله الدعوة إلى ثلاث طرق على حسب المدعوين. فالمدعوون ثلاثة أصناف، وهذه الأصناف تحتاج إلى ثلاثة طرق:

الطريقة الأولى: الحكمة وتكون هذه الطريق في حق المحب للحق، والراغب فيه، وهذا متى عرف الحق فزع إليه ولجأ إليه، واستقام عليه فهذا يدعى بالحكمة، ولا تستخدم معه الموعظة ولا الجدال. وأحسب أنكم منهم، أنتم طلبة علم، تحبون أن تتعلموا دين الله، وأن تمتثلوا أوامره، فجئتم راغبين طالبين معرفة أحكام الله عَزَّوَجَلَّ.

فالكلام معكم ينبغي أن يوجه بالحكمة، فهذا يكون لمن أراد الحق وطلبه، وتوجه إليه وحرص عليه فهذا فقط إلزم الحكمة.

هناك فريق آخر من الناس لا يصلح له إلا الموعظة الحسنة.

الموعظة الحسنة غير الحكمة، الحكمة أن تضع الشيء المناسب في المكان المناسب.

لمن تكون الموعظة الحسنة؟ فيمن كان معرضا، مشتغلا بضد الحق، ولكن لو عرفه لآثره واتبعه واستجاب لأمر مولاه، وخالف هواه، هذا يحتاج إلى الموعظة الحسنة.

الموعظة الحسنة تكون بالترغيب وتكون بالترهيب، ويستخدم أيضا معها الكلام الطيب.

هناك فريق ثالث قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هذا الفريق مُعانِد معارض، ولا حل معه إلا أن تجادله، ولا يجوز شرعا أن تجادله إلا بالتي هي أحسن.

دلت الآيات أيضا الدعوة إلى سبيل الله ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ لا الدعوة إلى أشخاص، ولا إلى الداعي، ولا إلى حزبه ولا إلى طريقته، ولا إلى شيخه ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ فالداعية يدعو إلى الله ويدعو إلى سبيل الله، وليس له طمع ولا طمح في شيء إلا الاستجابة لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو ليس عاملا لحزب أو لدعوة أو لشيخ أو طريقة، إنما يدعو إلى قال الله قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو يؤدي واجب أوجبه الله تَعَالَى عليه فليس له فضل على أحد، إنما هو يُمَسِّك الناس بالسنة والكتاب، وأجره في الأول والآخر على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا قد يقع في رياء نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَة ما هو علامة الداعية إلى الله المخلص؟ احفظ عني هذا.. الداعية المخلص الذي همه أن يقيم أمر الله، سواء كانت هذه الإقامة عن طريقه أو عن طريق غيره، أن يكون الناس معظمين لله، ولا أثر أن كان هذا التعظيم منه أو من غيره ممن دعا مثله إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيفرح لأن الناس متمسكين بأوامر الله، ولا يفرح لأن الناس قد تعلموا منه أو بأنه هو السبب في تعليم الناس أوامر الله.

فسواء الناس قاموا بأوامر الله عن طريقه أو عن طريق غيره يبقى فرحا كما هو.

هذا علامة المخلص في الدعوة إلى الله.

أما الذي يغضب إن وجد غيره وضع الله له القبول، ولم يوضع القبول له، الناس تقبل على غيره، ولا تقبل عليه فيقع في نفسه شيء. هذا ليس داعيا إلى سبيل الله.

الآية عجيبة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ لذا قال الله عَزَّوَجَلَّ عن الأنبياء وهذه الآية ينبغي أن نفطن لها، وأن نتذكرها. لما ذكر الله الأنبياء قال ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ كاللام عن من؟ عن الأنبياء. أمرنا باتباعهم، باتباع أشخاصهم، أم باتباع هداهم؟ قال الله ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ﴾ قال بعدها ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ طلب الهدى فالدعوة ليست دعوة أشخاص حتى الأنبياء. الداعي إلى عَزَّوَجَلَّ لا يهمه نفسه المهم أن يقيم دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى الأنبياء أمرنا أن نتبع هداهم، ولا أن نتبع أشخاصهم.

فالدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ سبيل الأنبياء، وفي آيات كثيرة في القرآن في طريقة الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تدلل على التطبيق العملي للموعظة الحسنة.

آيات كثيرة نحتاج ونحن نتلو كتاب الله ونمر بالخطاب والحوار بين الأنبياء وأقوامهم أن نتوقف، وذكرت لبعض إخواني قصة يوسف ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف:36:37] فالآيات حقيقة تحتاج أن تقف عندها وقفات، ووقفات كثيرة لتتعلم من الأنبياء كيف يستخدمون الموعظة الحسنة مع الناس، والمجال

ليس مجاله، إلا أن أشير لهذا أما التفصيل تحتاج إلى محاضرة كاملة. كيف استخدم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لكن أنوه لابد من طريقة الخطاب أن تكون لينة، أن ننوع ونتودد المدعوين، أن يكون القلب المدعو مقدم على أن نكسب موقفا عليه، التشويق، بيان الحجج العقلية اللائحة، لا نرذل ولا نقبح ولا نذكر سوء من ندعوه، ولا نترفع عليه. هذا كله موعظة حسنة. أن ننكر الذات، همنا أن ننصر دين الله جَلَّ فِي عُلَاه وأننا وإن كنا غرباء فإن لنا جذورا، ولنا أصول ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف:38] البداية بالأهم فالأهم، أن تُريح المدعو. يعني تخيل واحد يخاطب شباب يلعبون كرة يقول لهم أريد أن أعظكم الموعظة الحسنة وقلوبهم في الكرة؟! يعني يحتاج أن يتكلم بالشيء المناسب للمكان المناسب.

قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الجدال آخر مرحلة من مراحل الدعوة، كلما ذكرت موعظة وجدت إعراضا، ووجدت عنادا ووجدت صاحبه متوثبا لأن يرد عليك. فالآن الموعظة ليست من الحكمة، موعظة حسنة. الآن ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ آية عجيبة فيها الحث على الإنصاف في المناظرة، وأن يكون المراد اتباع الحق.

الإنصاف للمخالف هو أول الطريق لإرجاعه من باطله إلى الحق.

أن تبدأ معه منصفا، وغالب الناس في المناظرة يكون بينهما اتفاق في أشياء، وفاق، وبينهما فراق في أشياء، فالحصيف صاحب العقل الذي

امتثل قول الله ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لا يبدأ بالمخالفة يبدأ بالإقرار على الموافقة ثم يجر المخالف من الاتفاق الذي هو وإياه عليه إلى الخلاف الذي اختلفا فيه، ويبدأ بالحجج والبراهين لإقامة الأدلة على صدقه وعلى صواب رأيه.

تحرير مواطن الخلاف في النقاش، والتركيز عليها من المهمات جدا في الخلاف.

يُفهم من قوله ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أن من لا يستطيع المجادلة بالتي هي أحسن فلا يجادل، وهذا فرض لازم وحتم واجب لا سيما مع أهل الكتاب.

انظر هنا الآية ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ قال ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ المجادلة بالتي هي أحسن لأهل الكتاب من أهم المهمات.

انظر مثلا إلى قول الله عَزَّوَجَلَّ في العنكبوت الصيغة اختلفت، والصيغة مع أهل الكتاب دلت على شديد زائد فقال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة العنكبوت ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:46]

كيف تكون المجادلة لأهل الكتاب بالتي أحسن؟ تحتاج أن تكون لبيبا عارفا واسع الإطلاع، ذكيا تستحضر الأشياء، وتكون الأجوبة أجوبة مسكتة، في بعض الأجوبة مسكتة، الخصم لا يستطيع أن يرفع رأسه، ولا ندمدم، ولا نتمتم.

كان هناك طاغية من طواغيت الروم يدعو للنصرانية فكان يُعَرِّض بالمسلمين من يجادل؟

فالمسلمون انتخبوا الإمام ابن الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني، فذهب إليه، اسمع الآن وقل سبحان الوهاب، سبحان من وهبه الله لبعض الناس عقلا وفهما وحكمة فصار القاضي الباقلاني رسولا بأمر أمير المؤمنين إلى طاغية الروم، وجرت له أمور ونصيحتي لو أن بعض اخوانا استطاعوا أن يلملموا هذه المناظرة لملمة دقيقة من المصادر القريبة والبعيدة، وتضعوا المناظرة مناظرة الباقلاني مع طاغية الروم حول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حول النصرانية.

كتبت مناظرات، وجمعت لكن الجمع ليس وافيا. الملك نصب كمينا للباقلاني أدخله من خوخة شجرة، وينبغي أن يدخل راكعا لما يدخل راكع ما الذي أمامه؟ الراهب، وهذا لها أثر نفسي في المناظرة بالانهزام والضعف فالملك أدخله عليه من باب خوخة ليدخل راكعا للملك ففطن القاضي لها.. فدخل بظهره. فأول ما رأى الراهب قال أبو الطيب الباقلاني للراهب قال كيف الأهل والأولاد؟ فغضب الملك، فقال مَه! أما علمت أن الراهب يتنزه عن ذلك؟ الراهب يتنزه عن الزوجة. أما علمت أن الراهب يتنزه عن ذلك؟ فقال الباقلاني سبحان الله! تنزهونه عن هذا، ولا تنزهون رب العالمين عن الصاحبة والولد! فقال يا طاغية الروم للباقلاني -ويريد التوبيخ- قال كيف جرى لزوجة نبيكم؟ يريد عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا والإفك الذي افتري عليها. فقال الباقلاني كما جرى لمريم ابنة عمران، وبرأهما الله لكن عائشة لم تأت بولد، ومريم جاءت بولد. فسكت، أفحمه. فالمناظرة تحتاج إلى إنسان عاقل، لا تحتاج إلى علم فقط، تحتاج إلى عقل، ولذا أنا نصيحتي لإخواني أن يقرأوا مناظرات العلماء سواء السابقين أو اللاحقين.

مناظرات مالك التي تدل على التشدد في الأثر، جاءه أبو يوسف من العراق، يعقوب بن إبراهيم تلميذ الإمام أبي حنيفة فبدأ الجدال بالرطل،

كم مقدار الرطل، وكم مقدار الصاع، وكلام طويل، فمالك أرسل وراء الصاع الذي كان يكيل به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هذا صاع رسول الله، هذا مقداره، لماذا الخلاف الطويل؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تبل ثيابه فناظره قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الجمعة في عرفة صلى الجمعة، ولا صلى لعرفة؟ فكان أبو يوسف قال كان يصلي الجمعة. بمعنى إذا كانت عرفة في غير يوم الجمعة لا نخطب ولا نصلي هذه صلاة جمعة، وليست صلاة عرفة.

مالك فطن فقال مالك لأبي يوسف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما صلى جهر أم أسر؟ قال أسر. قال هذه ليست صلاة جمعة، صلاة عرفة.

لما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الجمعة في عرفة صلى الجمعة وما جهر، لو كانت جمعة لجهر، فلما ما جهر دل هذا على أن هذه الصلاة ليست صلاة جمعة، هذه صلاة عرفة.

إذا لو كانت عرفة في غير الجمعة نخطب ونصلي، والمناظرات التي هي في السماء، مناظرات الإمام الشافعي، وودي لو أن رجلا جمع مناظرات الإمام الشافعي، وعندي في كُنَّاشَاتي ما مر بي من أشياء عن مناظرات الشافعي عندي جمع لا بأس فيه لكني وقتي ضيق، والمشاريع تزاحمت، ولو أن بعض طلبة العلم فعل ذلك إن شاء الله أساعده فيما هو مقبل عليه.

الشيخ السعدي له كتاب جميل اسمه المناظرات الفقهية، كتاب نافع مفيد، وذكر بعض المناظرات للشافعي، وكتب الأشباه والنظائر ولا سيما عند الحنفية ككتاب ابن نجيم، يجعلون المناظرات قسما من الفقه، والذي يفهم المناظرة ويعرف مناظرات العلماء يلقح عقله، وتزداد معرفته

ويكبر عقله لا أقول علمه فقط، وأما العصر الحديث والمناظرات فإذا لا تستطيع أن تسمي أحدا أبرز وأظهر من شيخنا الألباني في المناظرات، وجَمَّعت مناظرات الشيخ الألباني فخرجت معي عشر مجلدات في جميع الأصناف. يعني مناظرات الشيخ عشر مجلدات، وكلها تدل على حلم وفهم وتدقيق، فالمناظرات وقراءة المناظرات ترفعك من مقام إلى مقام، ترفعك من مقام المستجيبين إلى مقام المعاندين، من مقام الراغبين إلى مقام غير الراغب، وتكون بيدك الحجة والنور.

قُيدت الموعظة الحسنة، ولم تقيد الحكمة بذلك.

الحكمة تعليم الطلبة العلم، والمتطلبين للخير فالموعظة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ الحكمة دائما خير هي للطالب والراغب ما في نقاش، أستاذ يملي، وطلبة يأخذون. ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ هذه حكمة فلا حاجة للتنبيه على أن تكون حسنة.

فالحسن لازم لها باق فيها لا ينفك عنها. الحسن في الحكمة، وأما الموعظة ففيها ردع للغافل، وتخويف من مآل من كانت أعماله سيئة، وفيها مظنة الصدور بغلظة من الواعظ، ولحصول انكسار في نفس الموعوظ فأمر الله عَزَّ وَجَلَّ بقوله ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ في ذلك القول وترغيب الموعوظ في الخير فقال الله تعالى لنبي الله موسى، ونبي الله هارون عَلَيْهِما السَّلَامُ ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:43:44]

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تختلف المجادلة -ودقق هذه الفائدة- وهذه فائدة دقيقة لا يقدر عليها إلا العالم الكبير ورأيتها في مدارج السالكين، يقول

حال المجادل وغلظته ودينه وحدته ورفقته فيكون المأمور بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن، ويحتمل أن تكون الحجة فيما يورد من البينات والكلمات، أن يختار أحسن شيء، وأوضح شيء في الدلالة على الحق، وفي الوصول للمطلوب. قال والتحقيق أن الآية تتناول النوعين الشخص، ولينه وغلظته يتفنن فيها ويضع كل شيء في مقامه، وفي مكانه مثل الباقلاني كما رأينا قبل قليل، يضع الأشياء في أماكنها، ثم وضوح الحجة وبيانها، والتدليل عليها فمعنى قول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تشمل الأمرين، طريقة الذي يجادل وحجة الذي يجادل.

في المجادلة دائما ينبغي أن يبدأ المبطل ثم يكر عليه صاحب الحق. لا يبدأ المُحِق، يبدأ المبطل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء:18] إذا بدأ المُحِق قد يكون الخصم يشغلك بما ليس في بالك، وليس من شأنك تتفرغ، لكن اجعله هو يتكلم ك-ما فعل موسى مع السحرة- من بدأ لما قالوا نلقي أو تلقي؟ قال ألقوا.

المبطل الذي يبدأ ثم يكر عليه صاحب الحق فإذا ظهر الحق حينئذ انزاح الباطل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ تأمل معي الآية بدلالة اللازم من الذي يسبق؟ الحق أم الباطل؟ تأمل الآية ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ فيدمغ الحق الباطل. من الذي يسبق؟ الباطل، وهذه آية من آيات الله يغفل عنها كثير من الناس. الحق يظهر بالتدريج، ما يظهر الحق مرة واحدة. بعض إخواننا يريدون عند القتال. يكون القتال مثل السلف، يا ليت هذا يكون لكن من سنة الله التي لا تتخلف الحق يبدأ

تدريجيا شيئا فشيئا فإذا وجد منكرات في القتال في الجهة التي تقاتل، هذه سنة لله، سنة الله أن يظهر الحق بالتدريج.

بعض الناس يظن أن المهدي عنده قوة سحرية! لا المهدي واحد منا مثل الناس، ويستخدم سنن الله جَلَّ فِي عُلَاه متمسك بالكتاب والسنة ويفعل جهده ولكن الله اختار مكانه واختار زمانه، ويظهر في وقت الله يشاءه، أما أن نعطل العمل للدين ونظل في كل سنة الجولات العالمية تنتهي بمكة في موسم الحج منتظرين المهدي، فإذا خرج المهدي بايعناه ونحن ساكتون! هذا صنيع من لا يفهم سنن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ صاحب الحق يعرف السنن التي تلزم.

الجدل في حقيقة أمره هو دفع هذا الصائل، هذا الصائل له صاحب حكمة بمعنى أنه مقبل مستجيب ولا هو غافل ويحب الحق، وإنما هو معارض معاند، فإذا عارض الحق معارض ينبغي أن يجادل بالتي هي أحسن، ولذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَجَادِلْهُم﴾ فجعله فعلا مأمورا به، وجعله مستقلا عن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ادعوا وجادلوا، جادلوا شيء آخر، صنف ثالث، صنف أشبه ما يكون بأن تدفع صائلا. فأمر الله عَزَّ وَجَلَّ بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمره أن يجادل بالتي هي أحسن فقال ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ المجادلة مغاضبة، والمجادلة مدافعة فلابد أن يرفق الإنسان، وأن يختار التي هي أحسن، والتي هي أحسن على حسب تقدير المجادل، والتي هي أحسن تتفاوت من مناظرة لمناظرة، ومن شخص لشخص ومن حالة ومن أثر لأثر وما شابه.

من أصحاب المجادلة التي نفع الله عَزَّوَجَلَّ بهم في العصر الحديث المجادلات التي قام بها بعض الموفقين من العلماء الهنود مع النصارى، الشيخ أحمد ديدات أسأل الله أن يرحمه وفق في كثير من المجادلات ورد كثيرا من الناس إلى الصواب، وكلما اتسعت معرفة المجادل بأحوال الأمم نفع الله عَزَّوَجَلَّ به.

ما هو حكم الجدال؟ حكم الجدال تعتريه الوجوب والاستحباب والحرام، فالجدال في الحج حرام، والجدال في الحق بعدما تبين حرام، والجدال بغير الحق حرام، والجدال ليس بالتي هي أحسن حرام.

هل الجدال طريق من الطرق التي يحبها الله؟ نعم. قال الله ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فعل أمر.

المناظرة والمجادلة في العلم جائزة إذا كان قصد المتجادلين إظهار الحق، وعدم التعصب للشخص فلا حرج في ذلك.

أعجب ما وقفت عليه مناظرة بين الشافعي والإمام أبي عبيد القاسم بن سلام، وكلاهما من أئمة الفقه وأئمة الحديث في معنى القرء جمعها قروء التي تعتد به المطلقة هل القرء الحيض، أم القرء الطهر؟ القرء تطلق على الحيض والطهر، وساق المناظرة تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية. فكان الشافعي يقول القرء هو الحيض، وكان أبو عبيد يقول القرء هو الطهر فبدأ كل منهما يورد على الآخر أدلة من الكتاب والسنة وآثار الصحابة وأقوال الشعر وأقوال العرب، فانتهت المناظرة أن الشافعي أصبح يقول القرء هو الطهر، وأصبح أبو عبيد يقول القرء هو الحيض، وكل منهما ترك قوله وأخذ بقول الآخر. هذه المجادلة التي يحبها الله ويرضاها.

كل منهما يريد الحق، فكل منهما ترك قوله وأخذ بقول الآخر.

إذا ما نفع المجادلة، وكنت أمام خصم عنيد لدود، فإذا ما نفع في إظهار الحق الحكمة ولا الموعظة الحسنة ولا المجادلة لم يبق لنا إلا أن نترك قوتنا وشأننا وما أتانا الله من علم ومعرفة إلى أن ندعو بالمباهلة.

أن يتدخل الله بقدرته وعلمه وحكمته، وأن ينصر الحق.

وجرت مباهلات كثيرة في التاريخ، والمباهلة أن تترك أن تترك أمرك وعقلك وعلمك إلى أمر الله عَزَّوَجَلَّ وسنة الله ماضية في كل متباهلين لا تمضي سنة عليهما إلا والمُبطِل يهلك.

المبطل في الخلاف يهلك ولا يبقى، فإذا ما بقي لنا إلا المباهلة فحينئذ نلجأ إلى المباهلة.

من أشهر المباهلات المباهلة التي جرت بين رحمة الله الهندي صاحب كتاب حجة الله البالغة وبين محمد ميرزا القادياني، ومحمد ميرزا القادياني هلك ومات بالسل، وهو يقضي الحاجة في المرحاض. هلك على هذا الحال.

فإذا ما نفع الحكمة ولا الموعظة الحسنة ولا المجادلة بالتي هي أحسن حينئذ يبقى المباهلة والمباهلة يضطر إليها العالم اضطرارا، وتكون بعد تحقق الحق بيقين. بغض النظر عن المسألة ابن عباس كان يدعو للمباهلة في العول في مسألة من مسائل الميراث، وأول من قال بالعول عمر، وكان يخطئ عمر رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فقال كنت أهابه، كان يقول بالعول، وكنت أهابه. هيبتي له منعتني من أن أراجعه. بعد وفاته أباهل من شاء في مسألة من مسائل الميراث.

فأي مسألة يتيقن عليها طالب العلم بيقين ودرسها ومحصها وفهمها فهما يقينيا فرأى أنه مخذول، وأن الناس لا ينصرون الحق الذي يراه، وهو يعلم أن هذا حق بيقين دون أي شيء له أن يباهل عليها. و بعض

طلبة العلم يعتقد أن المباهلة لا تكون إلا في التوحيد، هذا ليس بصحيح المباهلة في المسألة التي تيقن عليها العالم.

الآن نختم دروسنا هذه بالآية الأخيرة أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفعنا بما نقول، وبما نسمع.

يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:126]

هذه الآية بعد الآية التي قبلها في المصحف مباشرة، والآيتان المتتاليتان في القرآن لا يمكنك أن تفهم هذه الآية إلا بعد بيان تناسب الآيات، وعلم تناسب الآيات علم دقيق والذي انشغل به عدد قليل، وذكرت لكم ممن انشغل به من السابقين البقاعي في عدة كتب له نظم الدرر في تناسب الآي والسور، ومصاعب النظر وانشغل به من المعاصرين أو من العلماء من قريب عبد الحميد الفراهيدي الهندي صاحب كتاب دلائل النظام له تفسير اسمه دلائل النظام همه في التفسير الربط بين الآيات.

فأنا مضطر أن أربط بين هذه الآية والآيات التي قبلها، والربط بعد معرفته يظهر جليا وقد يكون فيه خفاء، ولا أكتمكم سرا سبب انقطاعي عن دروس التفسير هذه العقبة تناسب الآي والسور.

هذه عقبة حقيقة مسألة تناسب الآيات غير واردة عند ابن كثير ولا عند ابن جرير. ابن كثير يقطع الآيات ثلاث أربع آيات ويشرحها، وينتقل للتي بعدها، وينتقل للتي بعدها ولا يربط بين هذه والتي قبلها، وهكذا يصنع ابن جرير. فبقي هذا العلم فيه خفاء، ويحتاج إلى فهم وإلى تدقيق شديد في المعاني.

أمر الله تعالى محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو الخلق إلى دين الحق بإحدى الطرق الثلاث: الحكمة، الموعظة الحسنة والجدال بالطريق الأحسن، وهذه الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم والإعراض عنهم بل أن يحكموا عليهم بالكفر والضلال، وهذا يشوش القلوب ويوحش الصدور، ويحمل أكثر المستمعين على قصد ذلك الداعي إلى القصر والضرب والشتم ثم ذاك المحق إذا شاهد تلك التفاهات، وسمع تلك المشاغبات لابد أن يحمله طبعه على تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب وتارة بالشتم.

فعند هذا أمر الله المحقين في هذا المقام برعاية العدل والإنصاف فقال عَزَّوَجَلَّ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل:126] هذا الوجه في صلة هذه الآية التي قبلها، والوجه واضح. لا تنتقم لنفسك احرص على العدل، فإن تركت العدل إلى الفضل، فالفضل أحب إلى الله تَعَالَى من العدل، ولذا ختم الله هذه الآية بقوله بعد أن قرر العدل فقال ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ هذا العدل، ثم قال الله ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ هذا إيش؟ هذا الفضل. العدل واجب، فإن أردت أن تترك العدل ولا سيما لله وفي سبيل الله وفي سبيل الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن تترك العدل فتأخذ بالفضل فهذا لازم، والفضل واجب في وقت الفتن.

وقت الفتن علينا أن نأخذ بالفضل لا بالعدل لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما ثبت في صحيح الإمام مسلم قال بعد أن ذكر الفتن في الحديث الطويل

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**» في وقت الفتن تُعامِل الناس بالفضل لا بالعدل.

للآية سبب نزول، وسبب النزول ثبت عند الترمذي وأحمد من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قال لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا، ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة بن عبد المطلب فمثلوا بهم، فقالت الأنصار لأن أصبنا منهم يوما مثل هذا لَنُرْبِيَّن عليهم، لنزيدن العقوبة على عقوبتهم لنا، قال فلما كان يوم فتح مكة، وهو يوم التمكين يوم الفتح الأكبر فأنزل الله ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ هذه الآية نزلت في فتح مكة.

الأحكام التي تستنبط من هذه الآية الأول ترك الانتقام ولو كان مباحا، فإذا عاقب الظالم فليس للمظلوم أن يعاقب إلا بمثل ما عوقب به ثم قال ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ فعلم أن الصبر عن العقوبة بالمثل خير من العقوبة.

فالمعاملة بالفضل أحسن من المعاملة بالعدل إلا في سورة واحدة رجل عامل بالسوء فعفوت عنه ثم طمع بي، وطمع أن يبقى يعاملني بالسوء، وأنا أعفو عنه حينئذ من أجل أن تردعه عن عقوبته تعامله بالمثل لقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ لكن قال الله بعدها ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:40] الأصل إنك إن عوقبت بظلم أن تصفح، فإن طمع بك فاردعه وعامله بالمثل.

تخرج عن الأصل، وهذا مذكور في قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة:45] قال الله بعدها ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ فالفضل في الشرع أحسن من العدل.

في الآية هو دلالة واضحة على التماثل في القصاص، فمن قتل بحديدة يقتل بها، وورد معنا في الدرس الأول في هذه الدورة أن يهوديا رض رأس امرأة مسلمة بين حجرين فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرض رأسه بين حجرين ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ فالأصل المماثلة.

فالمماثلة في طريقة القصاص الأصل فيها والواجب إلا يتعدى المقدار.

منهم من قال لا قَوَد إلا بالسيف، القتل إذا أردت أن تقتل إلا بالسيف، لكن لا الآية واضحة والأحاديث النبوية والآثار الكثيرة تدل على أن المعاملة التي فيها العقوبة بمثل ما عاقب، أو بمثل ما قتل.

لذا في قَوَد في الضربة وفي الطعن بالدرة والمخصرة أو الطعن باليد.. القصاص واجب في هذا، وليس فقط القود القتل لا يكون إلا بالسيف. فيها دليل وهذه مسألة مهمة وتحتاج إلى أصل والأصل هذا أذكره بشيء من التفصيل، ولعلي في الدورات السابقة فصلت فيه أكثر.

مسألة تسمى الظفر رجل مظلوم أخذ له مال، تدور الدنيا فيتمكن من مال من أخذ منه، فهل له أن يأخذه؟ هذه مسألة تسمى عند العلماء الظفر.

سُئل النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عن الرجل يخون الرجل ثم يقع له في يده ما خانه به من الدراهم بالمقدار مثلا. قال إن شاء أخذ بالدراهم بمثل ما أخذ منه ثم قرأ هذه الآية ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ هنا مسألة وهي

مهمة، وهذا أصل معروف في الإيمان وفي الأحكام يخفى على بعض الناس.

نحن نعامل الناس بالظاهر، وقد نعامل المنافق معاملة المسلم، فالمنافق عند الله خالد مخلد في النار، وفي الدنيا مسلم.

يعني الحكم الدنيوي غير الحكم الأخروي، وكذلك الأحكام الفقهية إنما تنفذ في الظاهر دون الباطن. يعني رجل افترى على آخر وحلف يمينا واستحل شيئا فالحكم له. القاضي يقضي له فإن قضى له القاضي، وهو يعلم أن هذا اليمين غموس الحكم الظاهر أنه له لكن هل هذا يصبح عند الله حلالا؟ لا يصبح حلالا.

فالأحكام تنفذ في الظاهر دون الباطن. القضاة يقضون على حسب ما يسمعون، وثبت هذا فيما أخرجه الستة البخاري ومسلم، وأصحاب السنن الأربعة من حديث أبي سلمة الأنصاري قال قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«لعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فإنما أقضي بقطعة من نار فإن شاء فليأخذها وإن شاء فليدعها»** أنا قضيت، أنا القاضي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكن أنا قضيت على حسب ما أسبع، فقضيت بالبينات التي أمر الله عَزَّوَجَلَّ أن أتبعها، لكن الباطن أنا لا أعلمه، وهذا نص صريح فيه دلالة واضحة على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب.

«إنما أقضي لكم على نحو ما أسمع» وكل ما أخبر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغيب إنما هو بأمر الله. أما أن تجعل النبي عالم بالغيب، وعلمه كعلم الله بالغيب فهذا شرك مخرج من الملة.

بعض الناس يعتقد أنه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم من الغيب مثل الله فقال الشاعر:

ومن علمك علم اللوح والقلم

هذا جزء من علمك فماذا تبقى لله؟!

إذا علم اللوح والطلب من علمك ماذا بقي لله عَزَّوَجَلَّ؟!

فعالم الغيب هو الله، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد يقضي على نحو الظاهر. فهل الحكم بالظاهر يلزم منه أن يكون كذلك في الباطن؟ الجواب لا. في الظفر كذلك. ما معنى كذلك؟

يعني رجل علم أن فلانا أخذ ماله، فدارت الدنيا فأصبح مال فلان عنده، ليس معه دليل على أن هذا المال له عند القاضي، والذي أُخذ منه معه الدليل؛ فالقاضي يحكم لمن؟ يحكم لمن أُخذ منه. ولكن هذا الذي قد أخذ، أخذه حلال أم حرام؟ أخذه حلال في الباطن، وليس حلالا في الظاهر.

فهذا حكم أيضا مهم. يعني رجل رأى رجلا قتل أباه. رآه فقتله، لكن ما قتله مباشرة قتله بعد حين. عند القاضي ما في بينات أن فلان قاتل، فالقاضي يقضي بقتله لكن هل هو عند الله قاتل؟ هو ليس بقاتل، لعلمه اليقين أن هذا هو القاتل؛ فاقتص منه فالحكم الباطن غير الحكم الظاهر.

هذا الراجح من أقوال الفقهاء، وهو قول جماهيرهم، وأخيرا دلت الآية على أن من رد على من ظلمه بمثل مظلمته فإنه لا يكون آثما، وإنما صنع عدلا.

والله تَعَالَى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.